

محمود سامي البارودي

١٨٤٠ - ١٩٠٤



محمود سامي البارودي هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الإعلام في دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى في نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدتها بعد طول الخمود.

ولد سنة ١٨٤٠، وهو ابن حسن بك حسني من ضباط المدفعية في الجيش المصري، وحفيد عبد الله الجركسي أحد الكشاف في عهد محمد علي، وسمي البارودي نسبة إلى إيتاي البارود التي كان أحد أجداده الأمير مراد البارودي ملتزماً لها في عهد الالتزام.

وقد تلقى العلم أول ما تلقاه على أيدي أساتذة خصوصيين في سراي والده بغيطة العدة (القريبة من باب الخلق) والمعرفة بسراي البارودي، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتظم في المدرسة الحربية، وتخرج منها سنة ١٨٥٥، والتحق بخدمة الجيش المصري، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاي، وخاض غمار الحروب في ثورة كريد سنة ١٨٦٦، إذ كان ضابطاً في الجيش الذي أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار في مواقع عدة.

ولما شبت الحرب بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشاً لنجدة تركيا كان البارودي من ضباطه، وأبلى في الحرب بلاء حسناً، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية، ولما عاد على مصر رقى إلى رتبة اللواء، وعين مديراً للشرقية، وكان محافظاً للعاصمة حين ألف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ في أوائل عهد الخديوي توفيق، فاختره فيها وزيراً للمعارف والأوقاف، واشترك في حوادث الثورة العربية، وكان من زعمائها المشار إليهم بالبناء، وتولى

رئاسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢، ثم كانت الهزيمة، ونفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) وظل في منفاه نيفاً وسبعة عشر عاماً، وأسبغ عليه النفي سمات التضحية والبطولة^(١).

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العربية في منفاهم حياة ألم وحزن، إذ انقطعت صلتهم بالناس، وطال اغترابهم عن أرض الوطن، وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ومواطنيهم، ولم يكثر لهم أحد، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب!)، وجادت قريحة البارودي بشعر مؤثر في الحنين إلى الوطن، والحزن على فراقه، مما يعد آية في البلاغة، وبلغت سليفته الشعرية في منفاه ذروة العظمة والجلال.

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن:

محا البين ما أبقت عيون المها مني
عناء ويأس واشتياق وغربة
فشبت ولم أقض اللبانة من سني
ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن

إلى أن قال:

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
أهبت بصبري أن يعود فبزني
وما هي إلا خطوة ثم أقلعت
فكمن مهجة من زفرة الشوق في لظي
وما كنت جريت النوى قبل هذه
ولكني راجعت حلمي وردني
ولولا بنيات وشيب عواطل
مدامعنا فوق الترائب كالمزن
وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن
بنا على خطوط الحي أجنحة السفن
وكم مقلّة من غرزة الدمع في دجن
فلما دهنتي كدت أقضي من الحزن
إلى الحزم رأي لا يحوم على أفن
لما قرعت نفسي على فائت سني

(١) راج ترجمته تفصيلاً في كتاب (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي).

الصبر على الشدائد

وتجلت في منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس و احتمل آلام النفي بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله في ذلك شعر يفيض بهذه المعاني السامية.

قال وهو في سرنديب (سيلان):

أصبحت فيه فماذا الويل والحرب؟
ذنب أدان به ظلماً وأغترب؟
فإني صابر في الله محتسب
أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
ولا يشيد بذكر الخامل النشب (١)

لم أقترف زلة تقضي علي بما
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
فلا يظن بي الحساد مندمة
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت
لا يخفض البؤس نفساً وهي عالية

وقال مشيراً إلى مصادرة أملاكه:

خذ لي بحقي من يدي ما طلي
من كسبي الحر بلا ناطل (٢)
ذي رونق كالصارم القاطل (٣)
ففضل ربي حلية العاطل

يا ناصر الحق على الباطل
أخرجني عما حوته يدي
من غير ما ذنب سوى منطق
فإن أكن جردت من ثروتي

وقال من قصيدة أخرى في مقاومة الظلم والصمود أمام المحن والخطوب:

عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
أضر عليه من حمام يؤده
يسئ ويتلى في المحافل حمده
أيفرح في الدنيا بيوم يعده؟
بها بطلاً يحمي الحقيقة شده

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت
ومن ذل خوف الموت كانت حياته
وأقتل داء رؤية العين ظالماً
علام يعيش المرء في الدهر خاملاً
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعيش

(١) النشب: المال والعقار.

(٢) الناطل: الشيء القليل.

(٣) القاطل: القاطع.

وقال في هذا المعنى:

ـبـ) وفيضي آبار (تكرور) تبرا
وإذا مت لست أعدم قبراً
نفس حر ترى المذلة كفرأ

أمطري لؤلؤاً جبال (سرنديـ
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
همتي همة الملوك ونفسي

ومن قوله في الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد:

ويا بنات الأيك نوحى معي
مرى برياك على مربعي
بالله غني طرباً واسجعي
بذمه الـدمع فلا تهجعي
ضل بها الصبح فلم يطلع

فيا دموع القطر سيلي دماً
وأنت يا نسمة (وادي) الغضا
وأنت يا عصفورة المنحنى
وأنت يا عين إذا لم تقى
أبيت أرعى النعم في سدفه

أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا بد للمحنة من مقطع

فهل إلى الأشواق من غاية
لا تأس يا قلب على ما مضى

يتمنى أن يرى مصر

وقال في منفاه يتمنى أن يرى مصر:

وضجعة فوق برد الرمل بالقاع^(١)
ريا الأزاهر من ميث وأجراع^(٢)
بأهل ودي من قومي وأشاعي؟

يا حبذا جرعة من ماء محنية
ونسمة كشميم الخلد قد حملت
يا هل أراني بذاك الحي مجتمعاً

(١) المحنية: ما انحنى من الأرض.

(٢) الميث: جمع ميثاء الأرض اللينة.

وقال في هذا المعنى:

طوال الليالي والخيول هجد
نزت بين قلبي شعلة تتوقد
وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد!

أبيت حزيناً في (سرنديب) ساهراً
إذا حطرت من نحو (حلوان) نسمة
شباب وإخوان رزئت ودادهم

ومن قصيدة له في هذا المعنى قالها في منفاه يتشوق إلى الوطن:

يشفي عليلاً أخا حزن وإبراق^(١)
حتى جرى البين فاستولى على الباقي

هل من طبيب لداء الحب أوراقِي
قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقاً

وفيها يقول:

ولا عدتك سماء ذات إعداق^(٢)
من سندس عبقرى الوشي براق
يسري على جدول بالماء دفاق
قومي ومنبت آدابي وأعراقي
أنى أعيش بها في ثوب إملاق
أهلاً كراماً لهم ودي وإشفاقي

يا روضة النيل لا مستك بانقة
ولا برحت من الأوراق في حل
يا حبذا نسيم من جوها عبق
مرعى جيادي ومأوى جيرتي وحمي
أصبوا إليها على بعد ويعجبني
وكيف أنسى دياراً قد تركت بها

أنى مقيم على عهدي وميثاقي
نفسى فداؤك من ساق إلى ساق
بمصر الحرب لم تنهض على ساق

فيا بريد الصبا^(٣) بلغ ذوي رحمي
وأنت يا طائراً يبكي على فنن
أذكرتني ما مضى والشمل مجتمع

(١) الراقي: اسم فاعل من رقاها يرقيه أي عوده فهو راق.

(٢) البانقة: الداهية والبلية. ولا عدتك، أي لا تجاوزتك.

(٣) الصبا بالفتح: ريح معروفة.

وقال أيضاً في منفاه:

ردوا على الصبا من عصري الخالي
ماض من العيش ما لاحت مخايله
أدهى المصائب غدر قبله ثقة

وهل يعود سواد اللمة البالي؟
في صفحة الفكر إلا هاج بلبالي
وأقبح الظلم صد بعد إقبال

لا عيب في سوى حرية ملكت
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي
بلوت دهري فما أحمدت سيرته
حليت شطريه من يسر ومعسرة
لم يبق لي أرب في الدهر أطلبه
وأين أدرك ما أبغيه من وطر؟
لا في (سرنديب) لي إلف أجاذبه
أبيت منفردا في رأس شاهقة
إذا تلفت لم أبصر سوى صور

أعتني عن قبول الذل بالمال
مأمونة ولساني غير ختال
في ابق من لياليه ولا تالي
وذقت طعميه من خصب وإمحال
إلا صحابة حر صادق الخال
والصدق في الدهر أعياء كل محتال
فضل الحديث ولا خل فيرعى لي
مثل القطامي فوق المربأ العالي
في الذهن برمسها نقاش آمالي

علام أجزع والأيام تشهد لي
راجعت فهرس أثاري فما لمحت
فكيف ينكر قومي فضل باردتي
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به
ولي من الشعر آيات مفصلة
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته
فانظر لقولي تجد نفسي مصورة
ولا تغرنك في الدنيا مشاكلة
إن ابن آدم لو لا عقله شبح

بصدق ما كان من وسمى وإغفال
بصيرتي فيه ما يزري بأعمال
وقد سرت حكمي فيهم وأمثال
وإن غدوت كريم العم والخال
تلوح في وجنة الأيام كالخال
ويهتدي بسناها كل قوال
في صفحاته فقولي خط تمثالي
بين الأنعام فلقيس النبع كالضال
مركب من عظام ذات أوصال

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر:

خليلي هذا الشوق لا شك قاتلي
ففي ذلك (الوادي) الذي أنبت الهوى

وقال في هذا المعنى:

طال شوقي إلى الديار ولكن
حبذا (النيل) حين يجرى فيبيدي
تنتشى الغصون في حافتيه
قلدتها يد الغمام عقوداً
كيف لا تهتف الحمام عليه
كلما صورته نفسي لعيني

فمياً إلى (المقياس) إن خفتما فقدى
شفائي من سقي وبرئي من وجدي

أين من (مصر) من أقام (بكندي)^(١)
رونق السيف واهتزاز الفرند
كالعذارى يسحبن وشي الفرند
هي أبهى من كل عقد وبند
وهي تسقي به سلافة قند
قدح الشوق في الفؤاد بزند

الحنين إلى الأهل والولد

وقال في منفاه وقد رأى في المنام ابنته الوسطى:

تأوب^(٢) طيف من (سميرة) زائر
طوى سدفة^(٣) الظلماء ولليل ضارب
فيالك من طيف ألم ودونه
يخطي إلى الأرض وجدا وما له
ألم ولم يلبث وسار وليته
تحمل أهوال الظلام مخاطراً
"خماسية"^(٤) لم تدر ما الليل والسري

وما الطيف إلا ما تريه الخواطر
بأوراقه والنجوم بالأفق حائر
محيط من البحر الجنوبي زاخر
سوى نزوات الشوق حاد وزاجر
أقام ولو طالبت على الدياجر
وعهدي بمن جادت به لا تخاطر
ولم تتحسر عن صفحتها الستائر

(١) كندي مدينة صغيرة في جزيرة سيلان (سرنديب).

(٢) تأوب: أي أتى ليلاً.

(٣) السدفة: الستر.

(٤) أي بنت خمس سنوات.

فيا بعد ما بيني وبين أحبتي
ولولا أمانى النفس وهي حياتها
فأن تكون الأيام فرقن بيننا

إلى أن قال:

فلا يشمت الأعداء بي فلربما
فقد يستقيم الأمر بعد أعوجاجه
ولي أمل في الله تحيا به المنى
إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي
وإن هو لم يصبر على ما أصابه
ومن لم يذق حلو الزمان ومره
على طلاب العز من مستقره

إلى أن قال:

فإن كنت قد أصبحت فل (١) رزية
فكم بطل فل الزمان شبابه
فسوف يبين الحق يوماً لناظر
وما هي إلا غمرة ثم تتجلي
فق حاطني في ظلمة الحبس بعدما

وبأقرب ما التفت عليه الضمائر
لما طار لي فوق البسيطة طائر
فكل امرئ يوماً إلى الله صائر

وصلت لما أرجوه مما أحاذر
وتنهض بالمرء الجدود العواثر
ويشرق وجه الظن والخطب كاشر
يحاذره من دهره فهو خاسر
فليس له في معرض الحق ناصر
فما هو إلا طائش اللب نافر
ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر

تقاسمها في الأهل باد وحاضر
وكم سيد دارت عليه الدوائر
وتتزو (٢) بعوراء الحقود السرائر
غيابتها والله من شاء ناصر
ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

إلى غاية تنفت فيها المرائر
على فلكة الساقين فيها المآزر

فمهلاً بني الدنيا علينا فإننا
تطول بها الأنفاس بهراً (٣) وتلتوي

(١) فل: أي منهزم.

(٢) تتزو: تطمح يقال: نزا به قلبه طمح.

(٣) برها بالضم تتابع الأنفاس من الإعياء في اللسان.

ويسفل كعب الزور عاثر
فما أول إلا وينلوه آخر

هنالك يعلو الحق والحق واضح
وعما قليل ينتهي الأمر كله

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها:

لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
لبانيهما بين البرية بالفخر
خلت وهما أعجوبة العين والفكر
أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
لأبصرت مجموع الخلائق في سطر
يدانيهما عند التأمل والخبر

سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمي) مصر
بناء ان رداً صولة الدهر عنهما
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا
فكم أمم في الدهر بادت وأعصر
تلوح لآثار العقول عليهما
رموز لو استطلعت مكنون سرها
فما من بناء كان أو هو كائن

وختمها بقوله:

إلى ذلك البرج المطل على النهر
فصوبي عليها بالنثار من القطر
بها لا بريات القلائد والشذر^(١)
خلود الدراي والأوبد من شعري

فيا نسيمات الفجر أدى تحيتي
ويا لمعات البرق إن جزت بالحمي
عليها سلام من فؤاد متيم
ولا برحت في الدهر وهي خوالد

شعر القتال

ومن قصيدة له في إحدى المعارك التي خاضها، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال.

ودارت كما تهوي على قطبها الحرب

ولما تداعي القول واشتبك القنا

(١) الشذر: صغار اللؤلؤ.

وما جت صدور الخيل والتهب الضرب
سقيناً بكأس لا يفيق لها شرب
وإني صبور إن ألم بي الخطب

وزين للناس الفرار من الردي
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
صبرت لها حتى تجلت سماؤها

الفساد في عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام في عهد إسماعيل، وينصح قومه
بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى، وهي من شعره السياسي
الوطني الرائع:

أدهي على النفس من بؤس على ثكل
بغضاً ويلفظه الديوان من ملل قواعد الملك
حتى ظل في خلل

قامت به من رجال السوء طائفة
من كل وغد يكاد الدست يدفعه
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت

إلى أن قال:

شكالة الريث فالدنيا مع العجل
لكل منتزع سهماً ومختل
ويرفل العدل في ضفاف من الحل

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعوا
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً
حتى تعود سماء الأمن ضاحية

الجيش والدستور

وقال في أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش:

إلا جنى بهما ثمار السؤدد
(شورى) وجند للعدو بمرصد

أمران ما اجتمعاً لقائد أمة
(جمع) يكون الأمر فيما بينهم

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التي كانت تحاك حوله:

نقموا على حميتي فتألبوا	حزباً على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفرينهم فلما صادفوا	سمعاً يميل إلى الملام توسعوا
لا عيب في سوى حمية ماجد	والسيف يغلبه المضاد فيقطع

يحث على الاعتدال، ويستنكر الذل

قال في هذا المعنى:

إذا شئت تحيا سعيداً فلا تكن	لدوداً ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما	لقيت به شهماً يبر على المثري
فرب فقير يملأ القلب حكمة	ورب غنى لا يريش ولا ييري (١)
وكن وسطاً لا مشرباً إلى السهى	ولا قانعاً يبغي التزلف للصر (٢)
فأحمد أخلاق الفتى ما تكافأت	بمنزلة بين التواضع والكبر
ولا تعترف بذال في طلب الغنى	فإن الغنى في الذل شر من الفقر

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه في منفاه، فاستقبل مصر بقصيدته التي مطلعها:

أبابل مرأي العين أم هذه مصر	فلإني أرى فيها عيوناً هي السحر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة	فذلك عصر المعجزات وذا عصر

(١) أي لا ينفذ ولا يضر.

(٢) القانع هنا: السائل المتذل، والصر: الذهب.

إلى أن قال:

وإني امرؤ تآبى لي الضيم صولة
أبى على الحدثان لا يستفزني
مواقعها في كل معترك حمر
عظيم ولا يأوي إلى ساحتي دعر

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيقُض توجعاً لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدورها، وقد تذكر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان في أوج سلطانه، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران، وتذكر أخطاءه التي كان لها أثرها في التمهيد للاحتلال، فلم يترحم على عهده، ونظم هذه القصيدة معتبراً ومذكراً، وهي من آيات الشعر في العظة والاعتبار، وقال:

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع؟
هذي (الجزيرة) فانظر هل ترى أحداً
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
فلا مجيب يرد القول عن نبأ
كانت منازل أملاك إذا صدعوا
عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت
دارت عليهم رحي الأيام فانشعبوا
كانت لهم عصب يستدفعون بها
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع!
يتأى به الخوف أو يدنو به الطمع؟
للك من هنا لوفد العز مرتبع
ولا سميع إذا ناديت يستمتع
بالأمر كادت قلوب الناس تتصدى
طير الحوادث من أوكارها وقعوا
يد الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
أيدي سبا وتخلت عنهم الشيع
كيد العدو فما ضرروا ولا نفعوا

أين المعازل بل أين الجحافل بل
لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
أين المناصل والخطية الشرع؟
أحداث أو بقى من شر ما يقع
ولا تعطلت الأعياد والجمع
وإنما صفوه بين الورى لمع

ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع
من لم يزل بغير العيش ينخدع
— مار تمر وأيام لها خدع
وليس يعلم ما يأتي وما بدع

لو كان للمرء فكر في عواقبه
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث
دهر يغر وآمال تسر وأعد
يسعى الفتى لأمر قد تضر به

مهلاً فإنك بالأيام منخدع
لعل قلبك بالإيمان ينتفع
وكل ثوب إذا مارت ينخلع

يا أيها السادر المزور من صلف
دع ما يريب وخذ فيها خلقت له
إن الحياة لثوب سوف تخلعه

وظل البارودي بعد عودته من المنفى في عزلة من الناس، لا يجتمع إلا بالصفوة
المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهد، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٤٠، فخلف مجداً لا
يبلي على الزمان.